

السينما وعلم النفس ؛ قراءة في نماذج من الأفلام
Cinema and psychology; Read examples of films

بوزيدي محمد

جامعة ابن خلدون تيارت (الجزائر) mohamed.bouzidi@univ-tiaret.dz

تاريخ النشر: 2024/12/05

تاريخ القبول: 2024/09/03

تاريخ الاستلام: 2024/04/03

ملخص:

تُعالج السينما أصنافا كثيرة من الأفلام؛ وأكثر هذه الأفلام هي التي ترتبط ارتباطا وثيقا بعلم النفس فتصوّر موضوعات الغموض والجريمة والأمراض النفسية والإدمان والجريمة والانتحار وغير ذلك؛ وقد استفادت السينما كثيرا من نظريات ومباحث علم النفس الحديث التي ارتكزت أساسا على دراسات الطبيب النمساوي سيغموند فرويد. في هذا المقال سنحاول تسليط الضوء على أهم مفاهيم علم النفس الحديث التي جلتها شاشات السينما من خلال قراءة في نماذج من الأفلام التي تشربت من قضايا علم النفس ومدارسه الحديثة.

كلمات مفتاحية: السينما والمجتمع؛ علم النفس؛ سيغموند فرويد؛ الأمراض النفسية؛ التحليل النفسي.

Abstract:

Cinema deals with many types of films; Most of these films are closely related to psychology, depicting topics of mystery, crime, mental illness, addiction, crime, suicide, and so on. Cinema has benefited greatly from the theories and investigations of modern psychology, which were based mainly on the studies of the Austrian doctor Sigmund Freud. In this article, we will try to shed light on the most important concepts of modern psychology that were evident on cinema screens by reading examples of films that imbibed the issues of psychology and its modern schools.

Keywords: Cinema and society; psychology; Sigmund Freud; psychological diseases; Psychoanalysis

✉ بوزيدي محمد: mohamed.bouzidi@univ-tiaret.dz

مقدمة:

ارتبط الفن منذ القديم بما يُخالج النفس الإنسانية من مشاعر وأحاسيس مختلفة جعلته يُعبّر عن مكبوتاته بطرق كثيرة تجلّت في الأشكال الفنية مثل الشعر والرّسم والمسرح ومختلف الفنون الحديثة والمعاصرة ولا سيما السينما التي اجتمعت فيها كلّ الفنون وامتزجت مع التكنولوجيا ووسائل التصوير المعاصرة لتُعطي شكلاً مُبهراً ومُدْهشاً يكاد يسحر كلّ المتلقين ويأخذهم في عوالم لا متناهية ولا يُمكن للمشاهد إلّا الوقوع في هالة سحرها وجمالياتها المبهرة.

وبما أنّ الفنّ أساساً هو تعبير ذاتي جمالي انطباعي وتأثري عمّا يُحيط بالفنان من مظاهر ومواقف مختلفة في حياته ومجتمعه، فإنّ نفسه التي بين جنبيه هي أحد أهم العوامل الأساسية التي تجعله يُنتج أشكالاً عديدة من الفن، ومن خلال الدّراسات الحديثة التي جاءت مع اجتهادات النّمساوي سيغموند فرويد ومعاصروه استطاع علم النفس الحديث أن يغوص عميقاً في أغوار النفس الإنسانية ليكتشف كثيراً من المفاهيم النفسية التي تُعتبر من بين المنطلقات الرئيسية للإبداع الفنّي، وذلك من خلال التجارب التي أقامها هؤلاء في تفسيرهم للأحلام والكوابيس للمرضى، وطرق التنويم المغناطيسي، والتداعي الحر وما إلى غير ذلك. والمغزى هنا هو أنّ السينما والأفلام الروائية الطويلة كلّها تحاول سرد أحداث لشخصيات مبنية كثيراً على البعد النفسي الذي يتصدّر أحداث الفيلم أحياناً من خلال مصاحبة الشخصية وسيرتها الذاتية ومحيطها الاجتماعي من أجل رسم طريق الصراع الذي ستسير عليه أحداث الفيلم. وبعد متابعتنا لأفلام سينمائية كثيرة لاحظنا أنّها تُحاول في كثير منها إبراز مفاهيم كثيرة جاء بها علم النفس الحديث خاصة فيما تعلّق بشخصية البطل والشخصيات الرئيسية مثل: التسامي والتوحد والكبت والهستيريا والإنكار النرجسية والبارانويا وغير ذلك. ولعلّنا نطرح في خضم هذا التساؤل الآتي: ماهي أهم هذه المفاهيم النفسية التي تجلّت في السينما؟ وكيف وظّفها المخرجون السينمائيون؟ وللإجابة على هذين السؤالين سنحاول في هذه الورقة البحثية أن نُخصّص جانباً نظرياً يحدّد بعض المفاهيم المتعلقة بعلم النفس، وآخر تطبيقياً لبعض الأفلام السينمائية المعاصرة منتهجين طريق الوصف والتحليل الجمالي لبعض مشاهد الأفلام.

1- البحث:**2- العلاقة بين السينما وعلم النفس:**

طالما تداخلت ميادين العلوم الإنسانية والاجتماعية مع ما يتجلّى من الفن والإبداع حتّى أصبح لعلم اجتماع الفن نظرية قائمة بذاتها مثل الانعكاس والتلقي ومورفولوجيا الجماهير وسوسيولوجيا الذّوق والإدراك الجمالي وغير ذلك، وكلّها تحاول دراسة الظواهر الاجتماعية وربطها بالفن للتوصّل إلى نتائج هادفة ودقيقة كما يُطلق

عليها ناتالي إينيك بـ: "سوسبيولوجيا التحقيق أو التحري التي نمت وتطوّرت بفضل المناهج الحديثة المنبثقة عن الإحصاء وإمّا عن المنهج الإثنوي.." (إينيك، 2011)، يعني أنّ الفن تحوّل عبر فترات زمنية إلى كونه مؤسسة ولم يبق بمفهومه التقليدي الجمالي أو التاريخي، وهذا ما استثمرت فيه السينما بشكل رهيب عندما أصبحت أفلامها عبارة عن رسائل لإيديولوجيات كثيرة، إضافة إلى ما أصبحت تُدرّس من مداخل مادية كبيرة تُقارب ميزانيات لدول كثيرة. لماذا النظرية الاجتماعية للفن؟ لأنّه دائماً ما كان الفرد هو الحلقة الرئيسية التي تكوّن المجتمع، والفرد هو الذي تُبنى عليه مثل هذه الدّراسات، والسينما دائماً ما تحاول أن تعرض شخصية البطل من خلال مجتمعها وأسرته وكل الظروف المحيطة ، ولهذا فمجالات السلوك البشري التي يُمكن تجسيدها في السينما حتماً سيكون لها تماس مباشر مع مباحث علم النفس الحديث، ولعلّ من أهم "الموضوعات السلوكية التي تظهر في الأفلام : الجنس، والعنف، والسياسة، والمقامرة، والنوع والأمومة، والتدخين وتعاطي الخمر، والرياضة، والكلية ، والجريمة، وجنوح النشء، والغراميات، والغضب الأسري، والشيخوخة، والعلاج النفسي.." (يونغ، 2017).

3- مدرسة التحليل النفسي:

بدأت بوادر التحليل النفسي للأدب والفن عام 1915 عندما ألقى الطبيب النفسي "سغموند فرويد" في أحد مدرجات عيادة الطب العقلي بجامعة فيينا مجموعة من المحاضرات في التحليل النفسي تتكون من أربع أجزاء أولها: مدخل إلى التحليل النفسي، والثانية: نظرية الحلم؛ والمحاضرة الثالثة: النظرية العامة للأمراض العصابية؛ والرابعة: محاضرات جديدة في التحليل النفسي (فرويد، 1980) ، وفيها فسّر كل مراحل نظريته في النقد النفسي ومبادئه في التعامل مع الفن منطلقاً مما اكتشفه عن مرضاه وهو يشخصهم في عيادته سريراً، حيث اكتشف بعد ذلك بأنّ عملية الإبداع تنطلق أساساً من معاناة المبدع في حياته النفسية من أعراض ونزوات وحالات مختلفة أطلق عليها عدّة تسميات مثل العصاب والدّهان والأحلام ، وكانت نظريته هذه ناتجة عن مطالعته وشغفه بالفنون والآداب قديمها وحديثها، حيث قرأ من الأدب اليوناني روائع النصوص المسرحية واستخلص العقد النفسي مثل : عقدة أوديب، وعقدة إكتر، وكذلك لمسرحيات شكسبير ومن الأدب الروسي قرأ نصوص دويستوفسكي، وقام بتحليل أعمال الفنان دافنشي ، واستطاع بعد عودته إلى سير هؤلاء المبدعين أن يستخلص مبادئ نظريته بأنّ الإبداع نابع عن لاوعي هؤلاء من خلال أزمنة نفسية كانت قد طرأت عليهم، فكان موضوع اللاوعي الذي يمكن أن يتجلّى بطرق عديدة من بين التي ذكرها: زلّات اللسان، والسمع المغلوطة، والكتابة المغلوطة، والأحلام، وأهمّها الإبداع؛ حيث يرى فرويد بأنّ "الفنان المبدع في رأي فرويد هو إنسان محبّط في الواقع لأنه يريد الثروة والشرف والقوة والشهرة وحب النساء، لكن تنقصه الوسائل للوصول إلى جملة

هذه الرغبات ومن ثمّ يلجأ إلى التسامي كحيلة دفاعية من أجل تحقيقها في الخيال (الحميد، الأسس النفسية للإبداع الأدبي في القصة القصيرة، 1992). وهكذا مع ممثلي السينما وما يريد المخرج السينمائي رسمه من أبعاد نفسية لشخصياته فهو إمّا يحاول أن يسرد سيرا شخصية من الواقع للمشاهير أو الفنانين أو قصص حروب أو جريمة وما شابه ذلك، أو أن تتجلى بعض الأعراض والمواقف النفسية لشخصياته من خلال لاوعيه في الواقع الذي لايعرف هو أصلاً أنّه يعالج مكبوتاته عبر ما يُدّعه من كتابات لنصوص سيناريو أو إبداع وحبك وتصوير جمالي لفيلمه الذي يقوم بتحضيره.

استطاع فرويد أن يرسم للجهاز النفسي الباطني بشكل تفصيلي فقسّمه إلى ثلاثة مستويات تمثل أساس الحياة الباطنية:

(1) المستوى الشعوري، (2) ما قبل الشعور، (3) اللاشعور، وهذا المستوى الأخير هو الفرضية الأساسية التي تقوم عليها نظرية التحليل النفسي؛ وينقسم بدوره إلى ثلاث قوى متصارعة هي:

- **الأنا:** ويمثله الجانب السيكلوجي أو الشعوري.
- **الأنا الأعلى:** ويمثله الجانب الاجتماعي أو الأخلاقي (المختاري، 1998).
- **الهو :** ويمثله الجانب البيولوجي.

وقد شبّه فرويد المختزن من المكبوتات مثل الجبل الجليدي الذي يظهر على سطحه الجزء الأصغر، بينما في العمق يكون الجزء الكبير من كلّ ما اختزنه المبدع أو الإنسان في لاوعيه ويستتطق هذه المشاعر والعواطف والأزمات النفسية عبر ما ذكرناه سابقاً من الأحلام وحيل اللغة. وعلى هذا الأساس فمختلف الإبداعات نابعة عن وجدان النفس الإنسانية التي تحاول التعبير مرغمة عن ما يجول في دواخلها من صراع نفسي عبر رموز وجماليات الفن وأشكاله المختلفة، وهكذا فإنّ كلّ الأفلام والقصص التي ترويهما ما هي إلا انعكاسات للاوعي.

لقد عالجت السينما في ما طرحته من أفلام منذ ظهورها كلّ الموضوعات التي تحدّثت عنها الدّراسات النفسية وليست نظرية فرويد عن اللاوعي الفردي وحدها مجال تداخل مظاهر ومبادئ علم النفس والسينما؛ بل حتّى من عاصروه من التلامذة والزّملاء من أمثال : ك. غوستاف يونغ وألفريد أدلر وباك لكان وغيرهم، فمثلاً يونغ تطرّق لقضية اللاوعي على غير مفهوم فرويد بل أخذ منحى آخر حيث يرى أنّه نوعان " فردي يتصل بالإنسان نفسه وجماعيّ يتصل بالمجتمع " (خليل، 2003)، ولعلّ هذا ما كان من أهم ما سلّطت السينما عليه الضوء وهي تُجَلّي قضايا كثيرة لأشخاص يُمثّلون المجتمع والانتماءات والأجناس والأعراق والأمم، يعني أنّ الفيلم الذي يُعالج قضية التحرر مثلاً القضية الفلسطينية التي تُمثّل تأثراً جماعياً لدى المتلقي أو حتّى المبدع في شخص الأمّة العربية، حيث يختزن المجتمع كلّّه في لاوعيه الشعور بالذنب والخذلان لعدم التوفيق لنصر ومساعدة الإخوة

الفلسطينيين. أمّا أفريد أدلر فنظريته عن علم النفس الإيجابي تكاد تكون عنوانا لكل أفلام السينما وذلك من خلال الموضوعات التي تعرض قضايا الانتقام والشجاعة والتحوّل من الضعف والنقص إلى الانتصار والتفوّق " فكلّ فرد مطبوع على حبّ السيطرة والرغبة في الظهور.. لكي يحيا الإنسان حياة عقلية سعيدة" (القادر، 1949). فهذه الفكرة تُمثّل كلّ ما شاهدناه من الأفلام البطولية التي تسرد سيرة الشخصيات وهي في أشدّ حالات الضعف والبؤس والفاقة وعم الاستطاعة، لكن سرعان ما تتخذ هذه الشخصيات طرقا كثيرة للتعلّم ممّا سبق وكان من أسباب الفشل لتُصبح في النهاية وهي في أوجّ القوة والازدهار والتفوّق، تُمثّل هذه القضايا حالات نفسية للإنسان وهي مُتجلّية في شخص المخرج السينمائي أو فيما يرسمه عن شخصياته المُتخيّلة أو حتّى لشخصيات حقيقية من الواقع، وهذا ربّما ما يتجلّى في أفلام السيرة الذاتية التي تُمثّل أهمّ توجّهات الدّراسات النفسية لأنّها خاصة بالأفراد وما حدث لهم من أحداث وأزمات وتحوّلات في حياتهم الخاصة التي تتحوّل بشكلها السينمائي في الفيلم الذي تتداخل فيه جمالية التقنية والتصوير مع السرد الواقعي حياة الشخصية داخل إطار الفيلم .

4- موضوعات علم النفس في الأفلام السينمائية:

إنّ المنافسة الفنية السينمائية والتسابق نحو نيل الشهرة وتحصيل مختلف الجوائز جعل من السينمائيين تجريب كلّ أصناف وفئات الأفلام التي تحقق ذلك، فكان من بين أهمّ الموضوعات ما كان له ارتباط بعلم النفس كأفلام الغموض وأفلام البطولات الشخصية والسير الذاتية وأفلام الإعاقة والأمراض النفسية والفيروسات وما إلى غير ذلك.

4-1 فيلم "عطر امرأة" لمارتن برست (1992):



فيلم "عطر امرأة" من الأفلام النّاجحة التي تألّق فيها الممثل الشهير "آل باتشينو" الذي نال عنه جائزة الأوسكار كأفضل ممثل، يروي الفيلم قصة العقيد المتقاعد من الجيش (فرانك سليد) الضربير الأعمى مع جليسه ومصاحبه وخادمه الفتى "تشارلي" الطالب بالجامعة الذي ليس له مال من أجل مزاولة دراسته إلا بالعمل لدى العقيد فرانك سليد. "عطر امرأة" من الأفلام "التي أظهرت القدرات والتقنيات التمثيلية في نهاية الثمانينيات إلى النمط الفيلمي الذي يمكن أن يُطلق عليه "أفلام المعوّقين" (سميث، 2010)،

والفيلم يُعالج إعاقة جسدية ونفسية ، الجسدية في أنّ فرانك أعمى البصر، أمّ النفسية فقد تكون تمثيلية آل باتسينو في تقمصها وإبرازها ما جعلته يأخذ عنها الأوسكار، وقد تجلّت ملامح الأعراض النفسية في ما يُطلق عليه علماء النفس (علم النفس الإيجابي) أو التعويض النفسي أي الجهد الذي يبذله الفرد لكي ينفي الشعور بالنقص نتيجة سلوك ما أو عاهة جسدية، ففي فقدان البصر يؤدي إلى الزيادة في حاسة السمع بشكل رهيب، كما نجد أغلب الباحثين والعلماء والموسيقين من كان مكفوفاً (ححو، 2023). ومن بين أهم المواهب أو القدرات النفسية التي حاول العقيد فرانك التعويض بها عن كَفّ بصره ما يأتي:

- أنّه كان يضع بعض القواعد والقوانين الخاصة لجليسه وخادمه تشارلي مثل ألا يُمسكه من يده (يبرهن لذات نفسه أنّ قادر على السير بدون الاعتماد على تشارلي)، وكان يغضبه هذا الأمر كثيراً، وألاً يُناديه بسيدي كنوع من التسليم بضعفه وفقدان درجته الكبيرة في الجيش لأنّه أصبح ضريراً وهذا يُعتبر من التناقضات والاضطرابات النفسية وقد تجلّت في محاولته لبس بذلة الجيش والانتحار في بداية الفيلم إلا أنّ قصة تشارلي وزملائه بالجامعة جعلته يعيش فترة تحرّكت فيها نفسه ومرتبته التي كان عليها وظيفته في الجيش فأخذته الحماسة إلى متابعة قضية جليسه إلى نهايتها.
- من بين المواقف المذكورة في الفيلم والتي يُحاول فرانك إخفاء عاهته والتعويض عنها بالتفوّق والحدس والصحة النفسية ما كان في الحفل الراقص مع تشارلي حيث ومن خلال عطر المرأة الفوّاح الجميل فتقرّباً منها وأبهرها فرانك باسم العطر الذي تضعه، ثمّ دعاها لرقصة التانغو التي كانت هي لا تعرفها فرقص معها وأبهرها أيضاً واندعشت منه كيف لأعمى البصر أن يمتلك مثل هذه المواهب.
- من المواقف النفسية لشخصية فرانك وهي تحاول إبراز القدرات والتفوّق محاولته في كلّ مرة تفكيك وتركيب مسدسه ليكون الوقت أقلّ في كلّ مرة.



- أمّا أهم موقف في الفيلم الذي كان من أروع مشاهد السينما فهو مرافعته ودفاعه عن تشارلي في مجلس الجامعة حيث أنّ جليسه تشارلي كان في مشكلة عويصة ولم يجد من يسانده كزملائه الأثرياء إلاّ العقيد فرانك الذي أخذه بمثابة ولي أمره ، حيث كان يخطب في الجامعة أمام جمع كبير في الجامعة بكلّ شجاعة

وقوّة وثقة في النفس وهو يحط من قدر من ظلم الطالب تشارلي، حتّى نال إعجاب الجميع وصقّقوا له، وريح تشارلي قضية عدم طرده من الجامعة وأعجب الكثير من الحاضرين حتّى الأساتذة بطريقة فرانك في الحديث

والخطاب الذي قدّمه، هذا الموقف الذي رسمه المخرج لشخصيته بكل إتقان فالمعروف عن الجامعة وأساتذتها النبوغ والتفوق في اللغة وأسلوب الكلام وكل ما له علاقة بالمستوى الرفيع؛ حتّى جاء هذا الرجل الذي لا يتقن إلّا لغة الحرب والجيش لكي يكون رمزا للانتصار في قلب الجامعة وهذا ما يبرّر شدة التعويض النفسي الذي استخدمه العقيد فرانك من أجل التغطية وإخفاء ضعف الشخصية بسبب فقدان البصر.

■ إنّ هذه المواهب والقدرات التي أظهرها فرانك كلّها تصبّ فيما ذكره النّفسانيون وعلى رأسهم أدلر أنّها نابعة عن الشعور بالنقص وبالذّونية فلذلك يحاول الضّرير أن يعوّضها بقدرات تُخفي تلك العيوب مهما كان نوعها (آدلر أ.، 2005).

4-2 بارانويا أفلام الرجل الأمريكي الأبيض:

تُمثّل هذه الحالة النّفسية أغلب أفلام السينما الأمريكية فلا يُمكن حصرها في فيلم واحد أو مجموعة بل إنّ غالبية الأفلام الأمريكية تُجسّد عرض "البارانويا النّفسي"، والبارانويا من الأمراض النّفسية التي أسالت حبر علماء النّفس وعلى رأسهم النّمساوي فرويد والفرنسي جاك لكان يتلخّص مفهومها في إيمان المريض يقيناً بأفكار خاطئة تجعله يُشكّك في نوايا الغير ويرتاب بهم وبأفعالهم على الرّغم من عدم وجود أي شيء مطلقاً ممّا يشكّ به أو يعتقد عنهم (فرويد س.، 2000)، وهي ما يُطلق عليه بجنون الارتياب، وأحيانا يتداخل مع كثير من الأعراض النّفسية مثل الوسواس القهري، والإسقاط وغيره.

والأفلام الأمريكية تُعالج هذه الحالة النّفسية في كلّ أفلامها بصفة قومية وبأنّ الأمم كلّها تكيد لها وتُحاول إسقاطها حتّى الكائنات الفضائية متمثلاً ذلك في أفلام غزو الفضاء، فكانت هذه الأفلام كلّها تصوّر أمريكا في شخص ذلك الرجل الأبيض الذي يواجه المحن والظلم وإظهاره على أنّه ضحية مثل سلسلة أفلام "رامبو"، "مفقود في العمليات" و"شجاعة غير عادية"، "الشرطي الآلي" و"العنيد" و"التداعي" وكلّها تمثلاً للعودة إلى فينتام، وفي الحقيقة أنّ الشرّ كلّه يأتي عنهم بما يتجسّد ذلك في ترسانات الأسلحة الجد متطورة والقنابل النووية والصواريخ المتطورة بأحجام وأشكال متعدّدة ومالا يتخيّله العقل في أسلحة الدّمار الشامل الفتّانة التي تُصدّر للعالم أجمع، وقد سلّطت الضوء كثيرا من الأفلام المتعلّقة بالحروب العالمية التي تستعرض فيها قوّتها من خلال الأسلحة المستخدمة والتقنيات التكنولوجية الهائلة، وكثيرا ما كان الصّراع القائم في هذه الأفلام متشكلا من ثلاث أطراف رئيسية : أمريكا، روسيا والصين. فحالة الشك والريبة لدى أمريكا أفلام تجسيد ذهان "البارانويا" كثيرة و لا تحصى نذكر من بين المعاصرة منها فيلم "OLYMPUS HAS FALLEN" "سقوط البيت الأبيض" (2013)، الذي يروي قصة حارس سابق للرئيس الأمريكي يتواجد بالصدفة في مبنى البيت الأبيض ، في الوقت الذي تقوم



فيه جماعة من الجيش الكوري تابعة للنظام الاشتراكي بهجوم وتأخذ الرئيس الأمريكي ورئيس وزراء كوريا الجنوبية ووزيرة الدفاع كرهائن ويبدأ الصراع بين الطرفين والنّهاية دائماً حتمية بعد معاناة الحارس الأمريكي وتضحياته الكبيرة يكون الانتصار له بعد خسائر مادية ومعنوية كبيرة.

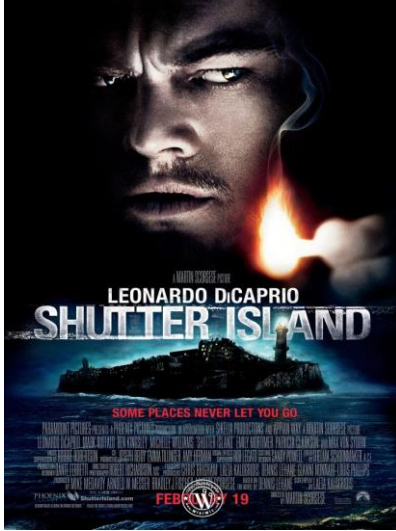
هناك أفلام أخرى كثيرة تشتمل حالة "البارانويا" بتجليات أخرى كأفلام الجوسسة واقتناء أعتى الأسلحة وأسرار المخابر الصناعية مثل فيلم "كابتن أمريكا" الذي يُسلط الضوء من جانب آخر يتمثل في التجارب الكيميائية على الجيش الأمريكي وصراعات مع إرهابيين يريدون السيطرة على العالم دائماً ما يكونون مدعومون من أطراف خارجية أكثرها روسيا والصين وكوريا الشمالية.

ولعلّ أكثر الأفلام تجسيدا لذهان "البارانويا" ما تعلّق بالحرب على العرب و المسلمين، فبعد الأحداث المعروفة في تفجير مبنى التجارة العالمي 2001/11/09 أفرزت السينما الهوليوودية كمّا هائلا من الأفلام التي تصوّر الرجل الأمريكي البطل المخلص في حروب غزو العراق وأفغانستان (الجهاني، الفيلم الروائي المغربي، 2019)، وبعد أن كان الأعداء من الأشرار والمجرمين من الفضاء أصبح العرب والمسلمين هم العدو اللدود الأول وفي هذه الأفلام أيضا وكما اعتاد المشاهد تظهر أمريكا في صورة الحمل البريء الذي ليس لها علاقة في الأمر إلاّ أنّه ظلّم وغُدر به ممّا يُعطيه هذا حق الرّد والدّفاع عن نفسه والحقيقة هي الدّاء النفسي " البارانويا" التي تؤثر على شعور أمريكا في شخصها الضحية في السينما.

3-4 اضطراب الشخصية التفارقي:

ولهذه الحالة لدى علماء النفس كثير من المفاهيم والتسميات مثل: انفصام الشخصية الحاد أو المزمن، وله عدّة أعراض منها: الارتباب، الهلوسة والأوهام، التخيلات، الاغتراب وغير ذلك، ويبقى هذا المرض النفسي من الأشكال التي ترتبط بأنماط سلوكية غير سوية ولهذه الشخصية صعوبة في التواصل الواقعي مع النفس والمجتمع والتأقلم مع الحياة العادية يكاد يكون مستحيلاً (خضر، 2022)، ومن يلاحظ الأعراض السيكلوجية سيجد أنّ هذا أخطرها وأكثرها غموضا وأصعبها شفاء لأنّه مرتبط بجميع الأعراض الأخرى. هذا الأمر الذي جعل من السينما تقوم بمعالجة الكثير من القضايا النفسية المتعلقة باضطرابات الشخصية لأنّ جلاّ الأفلام تحاول تصوير موضوعات الجريمة والانتحار والإدمان وما إلى غير ذلك وأغلبهم مُصابون باضطرابات شخصية مزمنة نتجت عن أزمات مختلفة ومواقف في حياتهم، ولا يمكن معالجة مثل هذه القضايا بدون فهم عميق لكل ما يصيب الشخصية البطلة التي تؤدّي هذا الدور بتفاصيل هذه الحالة النفسية.

أما بالنسبة للأفلام التي جسّدت هذا العرض النفسي فهي كثيرة ولا يمكن إحصاؤها وقد رأينا كثيرا من الأفلام تعالج محتويات الطب النفسي وبعضها يدور في مستشفيات خطيرة للأمراض النفسية ولعلّ أفضل مثال هنا هو فيلم "Shutter Island" (2010) "جزيرة شاتر" وهو فيلم من بطولة (ليوناردو دي كابريو، بن كينغسلي



ومارك رافالو) والذي يُسلط الضوء على اضطراب حالة شخصية (تيدي) نتيجة جريمة بشعة قامت بها زوجته. تمثلت في إغراق أولادها الثلاثة ممّا جعله يفقد التوازن ويفقد السيطرة على نفسه ويعيش في عالم يعتقد فيه أنّه محقق في من قام بقتل أبنائه وزوجته برفقة زميله (شيهان) الذي يؤدي دور المحقق معه في القضية وفي الحقيقة هو من أطباء ذلك المشفى. يقومان بزيارة مستشفى الأمراض النفسية في جزيرة شاتر النائية للتحقيق في قضية القتل، وفي هذه الحالة يقوم باستجواب مجموعة من المرضى في عياداتهم. أمّا مدير المستشفى فمُتفق مع زميله للتأكد من وجود فرصة لشفاء حالة تيدي، غير أنّ مرافقتهم له ومسايرتهم لعالمه الذي يعيش فيه وتقمّصهم

الأدوار معه لكي يصل إلى الحقيقة لم تُجد نفعا ممّا يجعلهما يصلان إلى نتيجة عمل عملية جراحية على مستوى رأسه حتى لا يقوم بإيذاء شخص آخر. وفي الفيلم نلاحظ تجسيد حالات أخرى جانبية لحالة اضطراب الشخصية التفرقي مثل الإسقاط والجنون والتوتّر، ويتجلى هذا المرض في الميل على التفرقة والتقسيم والتجزئة في الوظائف النفسية؛ فإذا اشتدّ المرض فقدت الشخصية وحدتها وظهر ضعفها وانقسامها ويصبح المريض ذو حالات متعدّدة في نفسيته ومزاجه (فرويد س.، 2000)، وهذا ما حدث مع تيدي الذي اتخذ شخصية المحقق تارة وشخصية الضحية تارة أخرى وشخصيته الحقيقية التي كانت نادرا ما تظهر لحدة اضطرابه وتفرّق كيانه النفسي.

أفلام كثيرة أخرى حاولت عرض مثل هذه الحالات بمظاهر مختلفة مثل فيلم "GLASS" 2019 ، والذي يسرد أحداث نفسية كثيرة لعدّة شخصيات أشهرها شخصية كيفن (جيمس ماكغوي) المصاب باضطراب تعدّد الشخصية أكثرها ظهورا شخصية الطّفّل والثانية شخصية الوحش التي تحبّ العنف، ويحاول الفيلم سرد أحداث شخصيتين أخيرتين لهما إصابات نفسية بحالات أخرى وتتفق هذه الشخصيات بعد هروبها من المستشفى نحو مكان لبرج عال يحاولون البرهنة للجميع أنّ لهم قوى خارقة بحيث لا يصدّقهم أي أحد. يمكن لتجلي حالة اضطراب الشخصية وانقسامها أن يتجلى أيضا في أفلام الخيال وأفلام الأبطال الخارقين والمتحوّلين الذين يتقمّصون شخصيات تظهر كلّ منها وكأنّها لا تعرف شيئا عن شخصية البطل الخارق عندما تظهر وتتأثر بفعل

عوامل الغضب أو الظلم أو الاحتقار أو ما شابه هذا مثل : سلسلة أفلام "The Incredible Hulk" (هالك الخارق)، وشخصية الجوكر في أفلام باتمان، أو حتى فيلم الجوكر نفسه joker (2019) الذي يعرض شخصية الجوكر المهرج المصاب باضطرابات نفسية كثيرة ومنها الاضطراب التفارقي الذي يؤدي به أحيانا إلى



نوبة من الضحك الهستيرية في مواقف ليست كوميدية إطلاقاً، ثم سرعان ما تعود شخصية مقدم الكوميديا الهادئ، وكما يظهر عن حالة اضطراب الهوية التفارقي حسب فيلم الجوكر أنه يتفاعل وتتأثر نفسية المصاب نتيجة التوتر والاحتقار والسخرية والتصغير من شأنه حيث

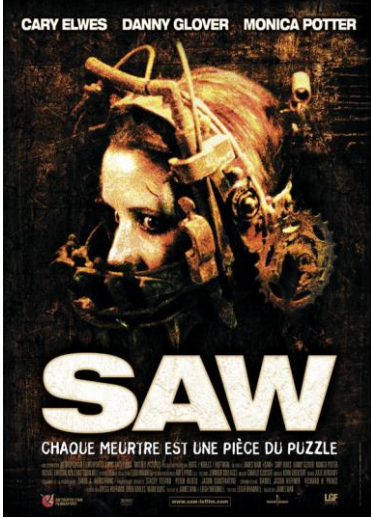
تحولت شخصية الجوكر من كاتب نصوص الكوميديا وتمثيلها إلى قاتل ومجرم حقيقي عندما تعرض للتمتر من قبل مقدم برنامج الكوميديا.

4-4 السادية والمازوخية:

من الحالات الشائعة في علم النفس السادية والمازوشية وهما مفهومان متضادان فالسادية في أعم معانيها هي الميل إلى تعذيب الآخرين والقسوة عليهم والتلذذ بفعل هذا الأمر، أم المازوخية فهي على النقيض من ذلك وهي رغبة الشخص المصاب في تلقي العذاب والإهانات والضرب وغير ذلك (غانم، 2014). أما غايتنا هنا فتتبع حالات تجسيد "السادية" في الأفلام وما أكثرها، وبالنسبة للمازوخية فيكاد يحصرها الدارسون في الاضطرابات الجنسية.

تتجلى موضوعات "السادية" في أغلبها ظهوراً في أفلام الرعب التي تروي قصص الأشرار الذين يتلذذون في تعذيب ضحاياهم والتنكيل بهم بأشد أنواع القسوة، فهذه الأفلام تسلط الضوء على شخصيات مصابة ومضطربة نفسياً نتيجة ظروف غامضة أو ماضٍ مأساوي شنيع أو عداً أسري أو ما مائل هذه الموضوعات؛ فيحدث نتيجة ذلك اكتئاب حاد سرعان ما يُترجم إلى "السادية". ولعل أهم ما نستحضره من أفلام الرعب التي تجسد هذه الحالات سلسلة أفلام (منعطف خاطئ) "WRONG TURN" وهي سلسلة أفلام تصوّر أولئك الأشرار من آكلي لحوم البشر التي تقوم باستدراج الضحايا الذين يسافرون إلى أماكن بعيدة من أجل الاستجمام وقضاء العطل، حيث يصطاد هؤلاء الأشرار الضحايا من كلّ الأجناس والفئات ويعذبونهم ويأكلون لحومهم ويفعلون بهم ما لا يخطر على بال، الغاية من هذه الأفلام هو تجسيد الرعب إلى أقصى درجاته غير أننا نستخلص منها ومن شخصيات هؤلاء الأشرار أنهم يعيشون أعراض "السادية".

وبما أنّ موضوع "السادية" يحضر كثيرا في أفلام الرّعب فإنّه لا يمكن حصر هذه الأفلام التي تصوّر شخصيات مضطربة تجسّد أقصى حالات الإجرام والقتل والتعذيب مثل سلسلة أفلام "HANIBAL" الذي يقوم فيه الشرير الجنرال المتقاعد بأكل لحجم البشر ويقطع أجزاء من ضحاياه ويتلذّد بتذوّقها وكأنّه يأكل طعاما عاديا. وأفضل مثال من أفلام سينما الرّعب الشائعة والتي تجسّد فيها "السادية" سلسلة أفلام "SAW" التي



تروي قصّة الرجل الطيّب الذي يتزوج ممرضة بمستشفى معالجة المدمنين وتحمل منه وفي إحدى الليالي يتهمّ أحد المتعاطين على المشفى ويقوم بإيذاء زوجة... بالخطأ فتجهض ويضيع الحمل ممّا يجعل... يدخل في نوبة اكتئاب حادّة تجعله يحاول الانتحار لكنّه يفشل في ذلك. تتحوّل شخصية.. من الرجل الطيب الذي يساعد الفقراء والمحتاجين إلى شخصية رجل نفساني ومجرم وقاتل متسلسل محترف يتلذّد بتعذيب ضحاياه بمختلف الوسائل والآليات والأجهزة مع وضع ألغاز وحيل كفرص لنجاة بعض ضحاياه، أمّا شخصية .. فتقوم بمشاهدة كل ما يحصل عبر تسجيلات

الكاميرا وتسير هذه الأحداث بشكل متسلسل من مكان لآخر كمتاهة يتسلى بها وهو يشاهد ضحاياه يقطعون أطرافهم ويفقأون أعينهم ويفعلون في أنفسهم ما يريد هو رغبة في إشباع نفسه وتمتّعها بهذه المشاهد.

4-5 أعراض نفسية أخرى:

تتغذّى أغلب موضوعات السينما من ميدان علم النفس لأنّ المحتويات التي تعرضها الشاشة كلّها متعلّقة بالإنسان وظروفه ومجتمعه ومحيطه وبيئته وحياته الشخصية " يدرس علم النفس السلوك الإنساني بكافة موضوعاته كالإحساس والإدراك والتمييز وسواها" (طبارة، 2000)، والإنسان يمثل الشخصية التي يوظّفها السينمائيون بأبعادها النفسية والاجتماعية التي تتماشى مع المحتويات التي تعالجها السينما وفئات الأفلام المختلفة، وعلى هذا الأساس فلا يُمكن الاستغناء أبدا عن إبراز دواخل الشخصية والعوامل التي أثّرت فيها حتّى تصل إلى تحقيق غايتها في النّهاية سواء كانت الشخصية الطيّبة أم الشريرة.

فبالإضافة على ما كان سابقا في البحث من نزعات نفسية عالجت السينما في ضوء شخصياتها هناك حالات نفسية أخرى كثيرة يمكنها أن تجتمع في الفيلم الواحد أو حتّى في الشخصية الواحدة؛ فمثلاً جلّ الأفلام تروي قصص بطولية لأشخاص تعرّضوا للضيم والأذى والتّمرّ وهذا أغلب ما تُبنى عليه الأفلام في بداياتها من طرف الأشرار فكان إلّا أن أظهرُوا شجاعتهم واختاروا لأنفسهم الثار والانتقام لردّ الاعتبار؛ وبالنسبة لمجال علم النفس وخاصة الإيجابي فقد خصّصت مباحثه موضوعا للشجاعة النفسية وحظي بالدراسة والتحليل فمثلا

يتناول ألفرد أدلر مفهوم الشجاعة بقوله "التحلي بالشجاعة يعني الاستعداد للمخاطرة حتى عندما تكون النتيجة غير مؤكدة إنها العضلات النفسية التي يحتاجها كل منا من أجل العيش في رفاة الحياة الجماعية والمعيشة" (خياط، 2023). وأما بالنسبة للأفلام التي تعالج موضوعات الشجاعة فهي جلّها إن لم تكن كلّها لأنّ الشجاعة حاضرة دائماً في شخص البطل مهما كان شكله في أفلام الخيال العلمي أو الرعب أو الجريمة أو غير ذلك، فتحضر على سبيل المثال لا الحصر في أفلام المخابرات في سلسلة "جيمس بوند"، أو سلسلة "TAKEN"، "JON WICK"، فيلم "ARGO" والذي يحكي قصة بطولية لعامل ملحق بالمخابرات الأمريكية يقوم بإنقاذ مجموعة من موظفين بالسفارة الإيرانية بعدما تقوم السلطات الإيرانية بمحاولة إعدامهم؛ حيث يتم ذلك بطريقة تجتمع فيها الشجاعة والفتنة والذكاء وحسن البديهة والمجابهة وعدم الخوف فكانت النتيجة لصالحهم.



إلى جانب الشجاعة هناك حالة نفسية تُدعى "الترجسية" وهي الحالة التي غالب ما تُمثّل شخصية الأشرار في أغلب الأفلام، أولئك الذين لا يفكرون إلا بأنفسهم وذواتهم وحبّهم لأنفسهم على حساب الجميع، فمن بين أهم مميزات الشخصية النرجسية هو الإحساس المبالغ فيه بأهمية التفرّد وقوة الرغبة في تأكيد حضور الذات وإعلاء شأنها، وهذا ما يجعلها تتلقى صعوبة مع الآخر في التعاطف معه والتواصل بشكل حميمي ولذلك تكون عدائية جدّاً عندما

تُمسّ مصالحها الشخصية وكلّ ما يخصّها. وقد استطاعت السينما كثيراً أن تجسّد هذه الحالة النفسية في شخصية الأشرار في كلّ الأفلام إذ لا بدّ من صراع تسير عليه أحداث الفيلم يصوّر الصراع بين الخير والشر، فالشخصية الخيرة هي التي تمثّل الإيثار والشجاعة والتعاطف مع الآخرين والدّفاع عن الضعفاء وغير ذلك؛ أمّا على النقيض من ذلك نجد شخصية الشرير التي تُمثّل نفسها فقط وما يحقّق أغراضها الخاصة بكلّ تملكه من قدرة، وتحاول الشخصية النرجسية في الأفلام الوصول دائماً إلى اعتلاء العرش أو الحكم أو تزعم القوم أو الثروة والشهرة ولو تحتمّ عن ذلك تدمير كلّ ما حولها ولو أقرب الناس إليها، وفي أفلام الخيال العلمي والأبطال الخارقين نجد الشخصية النرجسية تسعى إلى استعباد البشر وإذلالهم والتحكّم في زمام الأمور. أمّا عن الأفلام التي تُمثّل هذه النزعة النفسية فهي كلّ الأفلام غالباً لأنّ الصراع يجري دائماً بين من يُمثّلون الجانب الخير من البشر والعالم وبين من يُمثّلون الشر والجانب المظلم من العالم والذي تمثله "الترجسية".

وتبقى السينما دائماً كفن من الفنون التي تصوّر الواقع والخيال ممّا يعيشه العالم في أمس الحاجة إلى ميدان علم النفس للتمكّن من محاكاة نفسية البشر وسهولة تجسيد ذلك كنوع من الإسقاط الذي يعالج مختلف

الموضوعات. والحالات التي ذكرناها سابقا ما هي إلا جزء من كلّ لا نستطيع تناوله بالتفصيل لشساعة موضوعات علم النفس ومدارسه وميادينه المختلفة، والإنسان في الواقع أو داخل الفيلم معرّض لكلّ هذه النزوات والأعراض والأمراض النفسية التي قد تجتمع فيه كلّها فنجد مثلاً التسامي الذي يمكن ضمّه مه موضوع الشجاعة لأنّه يعدّ تحويل المرض والنقص النفسي والضعف إلى أشياء سامية يمكنها أن تغير في الظروف الخاصة والعامة، ونجد الخوف والتوتر والعقدة الأوديبية والاكتئاب والوسواس القهري والشذوذ والتوحد والتماهي وغيرها كثير من الحالات النفسية التي لا يمكن للسينما أن تجد تشويقها وجماليتها وتأثيرها على المشاهد إلا من خلال توظيفها بتفاصيلها ومجالها الخاص بها.

5- خاتمة:

- إنّ السينما وعلم النفس ميدانان متداخلان لا يمكن لأي منهما الاستغناء عن خصائص الآخر إذ أنّ كلاهما يهتمّان بمخاطبة المشاعر والعواطف والمكبوتات الدّاخلية للإنسان، ولا يمكن استغلال الدور الكبير الذي تلعبه الدّراسات النفسية الحديثة في ترقية فن السينما على مستوى موضوعاتها المعاصرة التي تحاول عرض شخصية الإنسان وما يدور حوله من أحداث وقضايا لها تأثير كبير على نفسيته وشفائها من الأمراض الدّاخلية. فالسينما تؤدّي جانبا كبيرا من التطهير النفسي للمشاهد وهو يرى كلّ حالات نفسه أمام عينه ما يجعله في حالة من التفاعل الإيجابي الذي يقود حسب النّفسانيين إلى تنمية القدرات والرفع من الهمم التي تمكن المجتمع من النّقْدَم والازدهار.
- أصبحت السينما اليوم تعالج كل قضايا النفس البشرية وما يعترّيها من أحوال وتفاعلات وتأثيرات التي يكون مصدرها غالبا الآخر كعنصر أساسي في أهم التغيّرات التي تطرأ على الإنسان سلبا أو إيجاباً.
- أضحت السينما المعاصرة تُركّز كثيرا على قضايا الغموض والعمق والانقسام الدّخلي الذي يصيب الإنسان ويؤدّي به إلى الهلاك كنوع من تسليط الضّوء على النّهج الذي يُنجيه من مثل هذه الأحوال والظروف والعوامل.

6- قائمة المصادر والمراجع:

- إ. محمود خليل. (2003). النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك. عمان: دار المسيرة للنشر والتوزيع.
- (1) أفرد أدلر. (2005). الطبيعة البشرية. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
- (2) جيوفري نوويل سميث. (2010). موسوعة تاريخ السينما في العالم السينما المعاصرة (1960-1995). القاهرة: المركز القومي للترجمة.
- (3) حامد عبد القادر. (1949). دراسات في علم النفس الأدبي. القاهرة: لجنة البيان العربي.
- (4) رجاء مكي طبارة. (2000). دراسة نظرية وعملية لتقنيات وميادين علم النفس الاجتماعي. لبنان: بيسان للنشر والتوزيع.
- (5) ريان حوحو. (2023). مقارنة نظرية لبعض مفاهيم علم النفس الإيجابي (نظرية علم النفس الفردي انموذجا). قبس للدراسات الانسانية والاجتماعية ، 530-547.
- (6) زين الدين المختاري. (1998). المدخل إلى نظرية التحليل النفسي. القاهرة: منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- (7) سكيب داين يونغ. (2017). السينما وعلم النفس. المملكة المتحدة: مؤسسة هنداوي.
- (8) سهير سالم، خالد خياط. (2023). الشجاعة في ضوء علم النفس الإيجابي. مجلة أبعاد ، 119-138.
- (9) سيغموند فرويد. (1980). مدخل إلى التحليل النفسي. بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر.
- (10) سيغموند فرويد. (2000). الموجز في التحليل النفسي. مصر: مهرجان القراءة للجميع.
- (11) شاكِر عبد الحميد. (الهيئة المصرية العامة للكتاب). الأسس النفسية للإبداع الأدبي في القصة القصيرة. القاهرة: 1992.
- (12) شيراز محمد خضر. (2022). انفصام الشخصية. الجزائر: دار الأكاديمية.
- (13) عبد الباسط الجهاني. (2019). الفيلم الروائي المغربي. لندن: الشركة البريطانية للنشر.
- (14) ناتالي إينيك. (2011). سوسيولوجيا الفن. بيروت: المنظمة العربية للترجمة.